

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ بِالْقُرْآنِ

مِنْ

أَضْوَاءِ الْبَيِّنَاتِ

تأليف

الشيخ العلامة محمد الأمين بن محمد المختار
ابن بكين الشنقيطي

إعداد

أ.د. سيد محمد ساد آبي الشنقيطي
أستاذ الإعلام الإسلامي بكلية الدعوة
والإعلام بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

دار الهدى النبوي

مصر - المنصورة

دار الفضية

الرياض - السعودية

وقوله تعالى في سورة الحجر: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلِهَآ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الحجر].

وقد بينا قصة لوط في هود والحجر، وقوله في هذه الآية الكريمة: أهوى. تقول العرب: هوى الشيء إذا انحدر من عال إلى أسفل، وأهواه غيره: إذا ألقاه من العلو إلى السفلى؛ لأن الملك رفع قراهم ثم أهواها؛ أي ألقاها تهوي إلى الأرض، منقلبة أعلاها أسفلها.

قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتِ الْآزِفَةَ ﴿٥٧﴾﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ [النحل: ١]، وفي سورة المؤمن في قوله تعالى: ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾... الآية [غافر: ١٨].

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَىٰ هَذَا الْحَدِيثَ تَعَجُّبُونَ ﴿٥٦﴾﴾. قد قدمنا الآيات التي فيها إطلاق اسم الحديث على القرآن في سورة الطور، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾... الآية [الطور: ٣٤].



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة القمر

قوله تعالى: ﴿أَفَتَرَبَّيْتَ السَّاعَةَ ﴿١﴾﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ [النحل: ١] وفي غير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا ﴿٢﴾﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ الآية [الأنعام: ٧].

قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ﴿٣﴾﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة يس، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ [يس: ٥١]، وفي سورة ق، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ [ق: ٤٤].

قوله تعالى: ﴿يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٤﴾﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان]، وفي سورة الحج، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧].

قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ: إِنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ ﴿٥﴾﴾ فَنَحْنُ أَتُوبَ السَّمَآءِ بِمَا مَنَّمْنَا مِنْهُمْ ﴿٦﴾﴾ وَفَجَرْنَا

الْأَرْضَ عَيْونًا فَأَلْتَقَى الْمَاءَ عَلَى أَمْرٍ قَدٍ قُدِرَ ﴿١٢﴾. قرأ هذا الحرف ابن عامر، «فَفْتَحْنَا» بتشديد التاء للتكثير، وباقي السبعة بتخفيفها.

وقد ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن نبيه نوحاً دعاه قائلاً: إن قومه غلبوه سائلاً ربه أن ينتصر له منهم، وأن الله انتصر له منهم؛ فأهلكهم بالغرق؛ لأنه تعالى فتح أبواب السماء بماء منهمر أي متدفق منصب بكثرة وأنه تعالى فجر الأرض عيوناً.

وقوله: عيوناً، تمييز محول عن المفعول، والأصل فجرنا عيون الأرض، والتفجير: إخراج الماء منها بكثرة، وأل في قوله: التقي الماء للجنس، ومعناه التقى ماء السماء وماء الأرض على أمر قد قُدِرَ؛ أي قدره الله وقضاه.

وقيل: إن معناه أن الماء النازل من السماء والمتفجر من الأرض جعلهما الله بمقدار ليس أحدهما أكثر من الآخر، والأول أظهر.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من دعاء نوح ربه - جلّ وعلا -، أن ينتصر له من قومه فينتقم منهم، وأن الله أجابه فانتصر له منهم فأهلكهم جميعاً بالغرق في هذا الماء المتلقى من السماء والأرض، جاء موضحاً في آيات آخر من كتاب الله كقوله تعالى في الأنبياء: ﴿وَنوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٦١﴾ وَنَضَرْتَهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجمَعِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنبياء].

وقوله تعالى في الصافات ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نوحَ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ إلى قوله ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الصافات].

وقد بين - جلّ وعلا - أن دعاء نوح فيه سؤاله الله أن يهلكهم إهلاكاً مستأصلاً، وتلك الآيات فيها بيان لقوله هنا: «فانتصر» وذلك كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٣٦﴾ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْنَاهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٣٧﴾﴾ [نوح]، وما دعا نوح على قومه إلا بعد أن أوحى الله إليه أنه لا يؤمن منهم أحد غير القليل الذي آمن، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحِىَ إِلَى نوحَ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ ﴿٣٦﴾﴾ [هود: ٣٦]، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ [هود: ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿عُيُونًا﴾، قرأه ابن كثير وابن عامر في رواية ابن ذكوان، وعاصم في رواية شعبة وحمزة والكسائي: «عيونا» بكسر العين لمجانسة الياء.

وقرأه نافع وأبو عمرو وابن عامر في رواية هشام، وعاصم في رواية حفص «عُيُونًا» بضم العين على الأصل.

قوله تعالى: ﴿وَحَمَلَتْهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوْجِ وَدُسِّرِ ﴿١٣﴾﴾. لم يبين هنا ذات الألواح والدرس، ولكنه بين في مواضع آخر أن المراد: وحملناه على سفينة ذات ألواح؛ أي من الخشب ودرس: أي مسامير تربط بعض الخشب ببعض، وواحد الدسر دسار ككتاب وكتب، وعلى هذا القول أكثر المفسرين.

وقال بعض العلماء وبعض أهل اللغة: الدسور الخيوط التي تشد بها ألواح السفينة.
وقال بعض العلماء: الدسور جَوْجُؤ السفينة؛ أي صدرها ومقدمها الذي تدر به الماء؛ أي تدفعه وتمخره به، قالوا: هو من الدسر وهو الدفع.

فمن الآيات الدالة على أن ذات الألواح والدسر السفينة. قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلَتُكُمُ فِي الْجَارِيَةِ ۖ﴾ [الحاقة: ١١]، أي السفينة كما أوضحناه في سورة الشورى في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ۝﴾ [الشورى].

وقوله تعالى: ﴿فَأَبْجَيْنَتْهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ ۖ﴾ [العنكبوت: ١٥]، وقوله تعالى ﴿وَأَيُّهُ لَمَّمْنَا أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ ۝﴾ [يس]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ۝﴾. الضمير في قوله تعالى: «تركناها»، قال بعض العلماء: إنه عائد إلى هذه الفعلة العظيمة التي فعل بقوم نوح.

والمعنى، ولقد تركنا فعلتنا بقوم نوح وإهلاكنا لهم آية لمن بعدهم؛ لينزجروا ويكفوا عن تكذيب الرسل، لثلا نفعل بهم مثل ما فعلنا بقوم نوح، وكون هذه الفعلة آية نص عليه تعالى بقوله: ﴿وَقَوْمٌ نُوْحٌ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ۖ﴾ [الفرقان: ٣٧]. وقوله تعالى: ﴿فَأَبْجَيْنَتْهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ ۝﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ۝ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۝﴾ [الشعراء].

وقال بعض العلماء: الضمير في تركناها عائد إلى السفينة، وكون سفينة نوح آية بينه الله في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿فَأَبْجَيْنَتْهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ۝﴾ [العنكبوت] وقوله تعالى ﴿وَأَيُّهُ لَمَّمْنَا أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ ۝﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ۝﴾ [يس].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ۝﴾. قد قدّمنا إيضاحه في سورة القتال، في كلامنا الطويل على قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ۝﴾ [محمد].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ۝﴾. قد قدّمنا الآيات الموضحة له، وكلام أهل العلم في يوم النحس المستمر، في سورة فصلت في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ ۝﴾ [فصلت: ١٦].

قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا أَبَشْرًا مِمَّا وَجَدْنَا نَبَعَهُ ۖ﴾ ... الآية.

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَيْلَى الذِّكْرِ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا ۖ﴾. قد قدّمنا الآيات الموضحة لهما في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَجِيئُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ۖ﴾ [ص: ٤]، وقوله تعالى: الآية ﴿أَمْ نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي ۖ﴾ [ص: ٨].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فَمَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۖ﴾. قوله: ﴿مُرْسِلُوا النَّاقَةَ ۖ﴾؛ أي مخرجوها من

الهبضية، ﴿فِنَّةً لَهُمْ﴾؛ أي ابتلاءً واختباراً، وهو مفعول من أجله؛ لأنهم اقترحوا على صالح إخراج ناقه من صخرة، وأنها إن خرجت لهم منها آمنوا به واتبعوه، فأخرج الله الناقة من تلك الصخرة معجزة لصالح، وفتنة لهم؛ أي ابتلاء واختباراً، وذلك أن تلك الناقة معجزة عاينوها، وأن الله حذرهم على لسان نبيه صالح أن يمسوها بسوء وأنهم إن تعرضوا لها بأذى أخذهم الله بعذابه.

والمفسرون يقولون: إنهم قالوا له: إن أخرجت لنا من هذه الصخرة ناقه وبراء عشراء اتبعناك.

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن الله أرسل لهم هذه الناقة امتحاناً واختباراً، وأنهم إن تعرضوا لآية الله هذه، التي هي الناقة، بسوء أهلكتهم، جاء موضحاً في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فذُرُّوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وقوله تعالى في سورة هود، عن صالح: ﴿وَيَنْقُورِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فذُرُّوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿١٤﴾﴾ [هود]، وقوله تعالى في الشعراء: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ لَهَا شَرِبٌ وَلَكُرَّ شَرِبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾﴾ [الشعراء].

وقد بين تعالى: أنهم عقروا الناقة فجاءهم العذاب المستأصل في آيات من كتابه كقوله تعالى في الأعراف: ﴿فَعَقَرُوهَا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [الأعراف: ٧٧] - إلى قوله - ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأعراف]، وقوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَدِيمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [الشعراء]، وقوله ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾... الآية [الشمس: ١٤].

وقد أوضحنا هذا غاية الإيضاح في سورة فصلت، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧].

قوله تعالى: ﴿وَيَنْبِئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ فِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرِبٍ مُخْتَصَرٌ ﴿٧٨﴾﴾. أي أخبر يا صالح ثمود أن الماء - وهو ماء البئر التي كانت تشرب منها الناقة - قسمة بينهم، فيوم للناقة ويوم لثمود، فقوله: «بينهم»: أي بين الناقة وثمود، وغلب العقلاء على الناقة. ﴿كُلُّ شَرِبٍ مُخْتَصَرٌ﴾؛ أي يحضره صاحبه، فتحضر الناقة شرب يومها وتحضر ثمود شرب يومها.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في آية أخرى، وهي قوله تعالى في الشعراء: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ لَهَا شَرِبٌ وَلَكُرَّ شَرِبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾ [الشعراء]، وشرب الناقة هو الذي حذرهم منه صالح لئلا يتعرضوا له في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةُ اللَّهِ وَسُقِّيَهَا ﴿١٣﴾﴾ [الشمس].

قوله تعالى: ﴿فَادَا صَاحِبَهُمْ فَطَعَانِي فَعَقَرَ﴾. قوله: ﴿فَطَعَانِي﴾، قال أبو حيان في البحر: فتعاطى هو مطاوع عاطى، وكأن هذه الفعلة تدافعها الناس وعاطاها بعضهم بعضاً، فتعاطاها قدار وتناول العقر بيده، انتهى محل الغرض منه.

والعرب تقول: تعاطى كذا إذا فعله أو تناوله، وعاطاه إذا تناوله، ومنه قول حسان رضي الله عنه:

كلتاها حلب العصير فعاطني بزجاجة أرخاهما للمفصل

وقوله: «فعقر» أي تعاطى عقر الناقة فعقرها، فمفعولها الفعلين محذوفان تقديرهما كما ذكرنا، وعبر عن عاقر الناقة هنا بأنه صاحبهم، وعبر عنه في الشمس بأنه أشقاهم؛ وذلك في قوله: ﴿إِذْ أُنْبِئَتْ أَشَقَّهَا﴾ [الشمس].

وهذه الآية الكريمة تشير إلى إزالة إشكال معروف في الآية، وإيضاح ذلك أن الله تعالى فيها نسب العقر لواحد لا لجماعة؛ لأنه قال: ﴿فَطَعَانِي فَعَقَرَ﴾، بالإنفراد مع أنه أسند عقر الناقة في آيات أخر إلى ثمود كلهم كقوله في سورة الأعراف: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ الآية [الأعراف: ٧٧]، وقوله تعالى في هود: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥]، وقوله في الشعراء: ﴿فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ﴾ [الشعراء]، وقوله في الشمس: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ [الشمس: ١٤].

ووجه إشارة الآية إلى إزالة هذا الإشكال هو أن قوله تعالى: ﴿فَادَا صَاحِبَهُمْ فَطَعَانِي فَعَقَرَ﴾ يدل على أن ثمود اتفقوا كلهم على عقر الناقة، فنادوا واحداً منهم لينفذ ما اتفقوا عليه، أصالة عن نفسه ونيابة عن غيره. ومعلوم أن المتماثلين على العقر كلهم عاقرون، وصحت نسبة العقر إلى المنفذ المباشر للعقر، وصحت نسبته أيضاً إلى الجميع؛ لأنهم متماثلون كما دل عليه ترتيب تعاطي العقر بالفاء في قوله: ﴿فَطَعَانِي فَعَقَرَ﴾ على نداءهم صاحبهم لينوب عنهم في مباشرة العقر في قوله تعالى: ﴿فَادَا صَاحِبَهُمْ﴾؛ أي نادوه ليعقرها.

وجمع بعض العلماء بين هذه الآيات بوجه آخر، وهو أن إطلاق المجموع مراداً به بعضه أسلوب عربي مشهور، وهو كثير في القرآن وفي كلام العرب.

وقد قدمنا في سورة الحجرات، أن منه قراءة حمزة في قوله تعالى: (فإن قتلوكم فاقتلوهم) بصيغة المجرد في الفعلين؛ لأن من قتل ومات لا يمكن أن يؤمر بقتل قاتله، بل المراد في إن قتلوا بعضهم فليقتلهم بعضهم الآخر، ونظيره قول ابن مطيع:

فإن تقتلوننا عند حرة واقم فإننا على الإسلام أول من قتل

أي فإن تقتلوا بعضنا. وأن منه أيضاً: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ [الحجرات: ١٤]، لأن هذا في بعضهم دون بعض. بدليل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِرُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾؛ إلى قوله ﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٩].

وقد قدمنا في الحجرات وغيرها، أن من أصرح الشواهد العربية في ذلك قول الشاعر:

فسيف بني عبس وقد ضربوا به نبا بيدي ورقاء عن رأس خالد
وقوله تعالى: ﴿فَمَقْرٌ﴾؛ أي قتلها. والعرب تطلق العقر على القتل والنحر والجرح
ومنه قول امرئ القيس:

تقول وقد مال الغبيط بنا معاً عقرت بعيري يامرأ القيس فانزل
ومن إطلاق العقر على نحر الإبل لقرى الضيف قول جرير:

تعدون عقر الذيب أفضل مجدكم بني ضوطرا لولا الكمي المقنعا
قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة في
سورة فصلت، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا
يَكْفِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسِحْرِ﴾، قوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾: قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الفرقان، في الكلام على قوله
تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَطَرَ غُثًّا رَجِيًّا﴾ [الفرقان: ٤٠]، قوله: ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ
نَّجَّيْنَاهُمْ بِسِحْرِ﴾ قد قدمنا الآيات الموضحة له إيضاحاً شافياً بكثرة.

وقد تضمنت إيضاح قصة لوط وقومه في سورة هود، وسورة الحجر، في الكلام
على القصة المذكورة في السورتين.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ﴾ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٍ
مُقْتَدِرٍ﴾ ﴿٤٢﴾. تضمنت هاتان الآيتان ثلاثة أمور:

الأول: أن آل فرعون جاءتهم النذر.

الثاني: أنهم كذبوا بآيات الله.

الثالث: أن الله أخذهم أخذ عزيز مقتدر.

وهذه الأمور الثلاثة المذكورة هنا جاءت موضحة في آيات آخر من كتاب الله؛ أما
الأول منها وهو أن آل فرعون وقومه جاءهم النذر، فقد أوضحه تعالى في آيات كثيرة من كتابه.
واعلم أولاً أن قوله: ﴿جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ﴾، قيل: هو جمع نذير وهو الرسول.
وقيل: هو مصدر بمعنى الإنذار فعلى أنه مصدر.

فقد بينت الآيات القرآنية بكثرة أن الذي جاءهم بذلك الإنذار هو موسى وهارون،
وعلى أنه جمع نذير أي منذر، فالمراد به موسى وهارون، وقد جاء في آيات كثيرة
إرسال موسى وهارون لفرعون كقوله تعالى في طه: ﴿فَأَنبَأَهُ فُقُولًا إِنَّا رَسُولًا رَّبِّكَ فَأَرْسِلْ
مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَدِّهُمْ قَدْ حِثَّنَاكَ بِآيَةِ رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧].

ثم بينت تعالى إنذارهما له في قوله: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ
وَتَوَلَّى﴾ [طه: ٤٨]، ونحوها من الآيات، وفي هذه الآية سؤال معروف، وهو أن الله

تبارك وتعالى أرسل لفرعون نبيين هما موسى وهارون، كما قال تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء]، وهنا جمع النذر في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ﴾، وللعلماء عن هذا أجوبة؛ أحدها أن أقل الجمع اثنان كما هو مقرر في أصول مالك بن أنس رحمته الله، وعقده صاحب مراقي السعود بقوله:

أقل معنى الجمع في المشتهر لاثنان في رأي الإمام الحمير قالوا: ومنه قوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحریم: ٤]، ولهما قلبان فقط. وقوله: ﴿إِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأَيِّهِ السُّدُسُ﴾ [النساء: ١١]، والمراد بالإخوة اثنان فصاعداً كما عليه الصحابة فمن بعدهم خلافاً لابن عباس، وقوله ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ [طه: ١٣٠] وله طرفان. ومنها ما ذكره الزمخشري وغيره من أن المراد بالنذر موسى وهارون وغيرهما من الأنبياء؛ لأنهما عرضا عليهم ما أنذر به المرسلون. ومنها أن النذر مصدر بمعنى الإنذار.

قال مقيده - عفا الله عنه وغفر له -: التحقيق في الجواب، أن من كذب رسولاً واحداً فقد كذب جميع المرسلين، ومن كذب نذيراً واحداً فقد كذب جميع النذر؛ لأن أصل دعوة جميع الرسل واحدة، وهي مضمون لا إله إلا الله كما أوضحه تعالى بقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء]. وقوله تعالى: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَعْلَنَّا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبُدُونَ﴾ [الزخرف].

وأوضح تعالى أن من كذب بعضهم فقد كذب جميعهم في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ نُوْمُنُ بِبَعْضِ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١]، وأشار إلى ذلك في قوله: ﴿لَا تُفْرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. وقوله: ﴿لَا تُفْرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَكَلِمَاتُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٢].

وقد أوضح تعالى في سورة الشعراء، أن تكذيب رسول واحد تكذيب لجميع الرسل، وذلك في قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء]. ثم بين أن تكذيبهم للمرسلين إنما وقع بتكذيبهم نوحاً وحده، حيث فرد ذلك بقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نُنْفِقُونَ﴾، إلى قوله ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ [الشعراء]. وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء]، ثم بين أن ذلك بتكذيب هود وحده، حيث فرد به بقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا نُنْفِقُونَ﴾ [الشعراء]، ونحو ذلك. في قوله تعالى في قصة صالح وقومه، ولوط وقومه، وشعيب وأصحاب الأيكة، كما هو معلوم، وهو واضح لا خفاء فيه، ويزيده إيضاحاً قوله ﷺ: «إنا معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد» يعني أنهم كلهم متفقون في الأصول وإن اختلفت شرائعهم في بعض الفروع.

وأما الأمر الثاني: وهو كون فرعون وقومه كذبوا بآيات الله، فقد جاء موضحاً في آيات آخر كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٣٦﴾ [الأعراف]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آرَيْنَهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ ﴿٥٦﴾ [طه]. وقوله تعالى: ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ﴾ ﴿٦٧﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٦٨﴾ [النازعات]: وقوله تعالى: ﴿وَأَدْجُلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ فَخَرَجَ بِضَاءٍ مِنْ عَيْرِ سُوءٍ فِي سَعِ آيَاتِ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِتْمَهُمْ كَأَنَّهُمْ قَوْمًا مِّنْ سِيقِينَ﴾ ﴿٦٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ وَجحدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٠﴾ [النمل].

وأما الأمر الثالث وهو قوله تعالى: ﴿فَلَاخِذْنَهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقَدِّرٌ﴾، فقد جاء موضحاً في آيات آخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٢٨﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ ﴿فَلَاخِذْنَهُ وَجُودُهُ فَبَدَدْنَهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ ﴿٤١﴾ [الذاريات]. وقوله تعالى: ﴿فَأَنبَهُمْ فِرْعَوْنَ بِحُجُودِهِ فَغَشِبَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِبَهُمْ﴾ ﴿٧٨﴾ [طه]. وقوله تعالى: ﴿وَأَعْرَفْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنشَرْنَا نَظْرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠]، إلى غير ذلك من الآيات. وقوله: ﴿أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقَدِّرٌ﴾؛ يوضحه قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذَ رِيكَ إِذَا أَخَذَ الْفُرْيَ وَهِيَ ظَلِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ ﴿١٣٦﴾ [هود].

وقد روى الشيخان في صحيحيهما عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لِيَمْلِكُ لِلظَّالِمِ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَفْلِتِهِ». ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذَ رِيكَ إِذَا أَخَذَ الْفُرْيَ﴾... الآية [هود: ١٠٢]، والعزيز: الغالب، والمقتدر: شديد القدرة عظيمها. قوله تعالى: ﴿أَكْفَأُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيَّكُمْ﴾. قد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة الزخرف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ [الزخرف: ٨]، وفي صدر سورة الروم، وغير ذلك من المواضع. قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْجَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ دُخَانًا مِّنْ سَفَرٍ﴾ ﴿٤٨﴾. قد قدّمنا الكلام عليه في سورة الطور، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ ﴿١٣٦﴾ [الطور]. قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْتَهُ بِقَدَرٍ﴾ ﴿٤٩﴾.

قد قدّمنا الكلام عليه في سورة الزخرف، في بعض المناقشات التي ذكرناها في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ ﴿٨١﴾ [الزخرف]. قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزَّبْرِ﴾ ﴿٥٦﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌّ ﴿٥٧﴾.

الصحيح في معنى الآية: أن كل شيء فعله الناس مكتوب عليهم في الزبر؛ التي هي صحف الأعمال، وكل صغير وكبير مستطر؛ أي مكتوب عليهم لا يترك منه شيء.

وهذا المعنى جاء موضحاً في آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَتَوَلَّانَا مَالٌ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩]. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

والزبر: جمع زبور، وهو الكتاب. والمستطر: معناه المسطور؛ أي المكتوب، والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّيْقِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ ﴿١٥﴾﴾. أي في جنات وأنهار كما أوضح تعالى ذلك في قوله: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴿٢٥﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ حَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ﴿١٥﴾﴾ [محمد: ١٥].

وقد ذكرنا كثيراً من أمثلة إطلاق المفرد وإرادة الجمع، كما هنا في القرآن العظيم، مع تنكير المفرد وتعريفه وإضافته، وأكثرنا أيضاً من الشواهد العربية على ذلك في سورة الحج في الكلام على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طفلاً﴾ [الحج: ٥]، وفي غير ذلك من المواضع. والعلم عند الله تعالى.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الرحمن

قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾﴾. قال بعض أهل العلم: نزلت هذه الآية لما تجاهل الكفار الرحمن - جلّ وعلا - كما ذكره الله عنهم في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الفرقان: ٦٠]، كما تقدم في الفرقان. وقد قدّمنا معنى الرحمن وأدلته من الآيات في أول سورة الفاتحة.

قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾﴾. أي علم نبيه ﷺ القرآن فتلقته أمته عنه، وهذه الآية الكريمة تتضمن رد الله على الكفار في قولهم إنه تعلم هذا القرآن من بشر كما تقدم في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمَهُ أَنْهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل: ١٠٣]، وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ﴿١٤﴾﴾ [المدثر]، أي يرويه محمد عن غيره.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ إِفْكُ أَقْرَبَهُ وَاعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾﴾ وَقَالُوا اسْتَطِيرَ الْأُولَى كَاتِبَتِهَا فِيهِ تَمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةٌ وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ [الفرقان].

فقوله تعالى هنا: ﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾﴾؛ أي ليس الأمر كما ذكرتم من أنه تعلم القرآن من بشر، بل الرحمن - جلّ وعلا - هو الذي علمه إياه، والآيات الدالة على هذا كثيرة جداً، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿٦﴾﴾ [الفرقان: ٦]، وقوله تعالى: ﴿الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾